إلى مهلكتي

شرف الدين عكري

مجموعة قصصية

طبعة ثالثة منقّحة ومزيدة

2025

إلى مُهلكتي

الكتاب	إلى مُهْلِكَتي
الكاتب	شرف الدين عكري
تاريخ النشر	الطبعة الثالثة 2025
الترقيم الدولي	978-1-861-64263-9
التصميم	بكري خضر

الناشر
دار المصورات
للنشر والطباعة والتوزيع

الخرطوم غرب
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت:+249912294714
elrayah1995@gmail.com

المدير المسؤول: أسامة عوض الريح

حقوق النشر محفوظة للمؤلف©

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أونقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

دار المصورات للنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

إلى معلّمتي

مجموعة قصصية

شرف الدين عكري

إهداء:

إلى روح الريّس شيخ الرواية العربية حنا مينه رحمه الله.

بَقايا رَجُل:

تَناهى إلى سمعه صوت أثير، فسعى بخطى وئيدة شطر النّافذة، وبيده فنجان القهوة، حتّى إذا بلغها أخذ يعاين بأسارير باسمة المطر الغزير، وهو ينهمر شلاّلات متدفقّة.

أسند رأسه إلى زجاجها، وباستمتاع أطرق يتأمّل تناثر رذاذ حبّات المطر على حوافّها، منصتا لهزيم الرّياح المتناغم صوتها مع وقع المطر الشّديد، مستشعراً دفئاً لم يهتد له منذ زمن بعيد!

وفي جوارحه تحرّكت الذّكريات الهاجعة في فراش الأمل السّرمدي، وطافت بخلده أسئلة الخلاص المشتهى، فاستقلّ جندول الصّمت الجنائزي، وجدّف يتهادى على صفحة ماء الوحدة الثّمينة.

لقد دنت منه السّماء فصارت على مقربة منه، وبيده أنشأ يلوّح للأرواح في مسارح الأبديّة، وما إن همّ يقطف من سمائها نجمة تضيء بنورها ردوب حياته، حتى اشرأبّ الطّيف الأسود كَرّة أخرى بعنقه كحشرة دبقة، فغدا شاخصاً أمامه بجلاء، وأنشأ ينغّص عليه صفو اللّحظات المميّزة، ويقطع عليه موجات السّكون.

افترَّ ثغره عن ابتسامة ساخرة، وهمّ أن يكرّر على مسامعه كلماته التي ما انفكّ يجترّها مؤخراً، بيد أن **بشيراً** استبسل هذه المرّة، فصرخ في وجهه، وقد توارت بشاشة وجهه خلف ستار من الكدر:

- فأمّا الحياة فقد عشتها في أحضان قيثارتي المهترئة، ومكتبتي المتواضعة، وتجاربي النّاقصة، وطموحاتي اللّامتناهية، ومخاوفي الجميلة، ونفسي الجامحة، وانكساراتي المروّضة، وذكرياتي المعّتقة التي ما فتئت تطفو على السّطح، وبعنف شديد، كلما تشابهت الصّور أو الوجوه أو الرّوائح أو الأمكنة أو الأغاني أو الأسماء...

فكفّ لحظة ثمّ أردف، وقد بدا مبهوتاً في سحنته:

- لستُ الشّخص الذي يهابُكَ.

فقعقع الطيف الأسود بضحكة مجلجلة، ومضى في استفزازه قائلاً:

- وهذا عزاءٍ لا بأس به.

فجزّ بشير على أسنانه وقال:

- لتذهب إلى الجحيم إذن أنتَ وأحابيلك!
- انظر لما جنيته على نفسك! قال الطّيف بصوت

تعانقه رنّة الاستهزاء.

وبينما استمرّ بشير صامتاً واجما، أضاف الطّيف بلهجة حادّة:

- لا أوّل لك، ولا آخر! لا تملك إلاّ همومك! لقد سحقت ذاتك بالتعنّت، والإنصات لصوت ضميرك المزعوم. فمالك ولركوب متن الشّطط؟ وما لك وللرّعونة التي جرّتك إلى الدّرك الأسفل؟
- لم يكن مزعوماً! زعق بشير وأمّارات الاستياء على وجهه.

أمّا الطّيف الأسود فربت على كتف بشير، وقال:

- هبْ أنّه كان كذلك صادقاً. قل لي ماذا ربحت؟

وبأساريرَ توحي بالانقباض ردّ بشير:

- راحة ضميري قلتُ لكَ!

ارتسمت على شفتي الطّيف الأسود ابتسامة جوفاء مليئة بالمعاني، ودمدم قائلاً:

- وبينما أنت هنا خائب مكلوم، فغيركَ من زملاء الدّرب ينعمون في رغد العيش.
- إنه رغد زائف. هتف بشير بصوت مشرّب بالانفعال.

- وبحبوحة عيشك حقيقة لا غبار عليها! قال الطّيف الأسود بفتور واستنكار.
- ...
- لا أرى أمامي إلا **بقايا رجل** قد مزّقه السّجن شرّ ممزّق، وأضناه التّنكيل في المخافر، وأرمض قواه المثول أمام المحاكم والقضاة.
- لكنّني ما فقدت إنسانيّتي. قال بشير ضاغطاً على الحروف.
- وهل تعلم بأن الإنسانيّة لم تعد عملة مطلوبة في زمن اللاّإنسانية. يا لك من شخص

مأسوف على حاله!

- ...
- يا ليتكَ أصغيتَ!

تقدّم بشير من الطّيف الأسود غير هيّاب ونظر في عينيه المظلمتين مباشرة، ثم قال بأعلى صوته، وقد ملك عليه الغيض أمره:

- ابتعدْ عنّي.. ابتعدْ عنّي أيّها الخسيس القذر.. لن تنال منّي كما نلتَ منهم.. فأنا رجل مبدئيّ.. رجل شريف كرّس حياته لكلّ ما هو نبيل.

أعلنُ هذا، وأعلنتُه على رؤوس الأشهاد.

- **نمْ أيّها الرّجل المبدئيّ الشّريف، وإلّا سعيتُ إليك، ونزعتُ عنكَ قنوطك وشرفك!**

قال السّجان، وهو يقرِع باب زنزانة بشير الانفراديّة بعصاه.

حصن متين!

مع بداية الشهر كنتُ قد انتقلتُ للسّكن مع أحد زملائي في الشّغل. لم نكن على صداقة متينة، فعلاقتي به كانت تبدأ في مقر العمل وتنتهي هناك. لكن مع انتقالي للعيش معه، فقد توقعت أن تتسع رقعة علاقتنا قليلاً.

كان معاذ بحاجة إلى من يخفّف عنه عبء كراء الشقّة لوحده، وكنتُ بحاجة ماسّةٍ إلى استقرار مؤقتٍ، إلى حين تدبّر ملجأ أفضل، فالعثور على مسكن للكراء، وتحديداً غرفة واحدة عند السّطح، كما أفضّل، ليس بالأمر الهيّن. وكون المدينة صارت قطباً صناعياً ناشئاً، فقد جذبت إليها أنظار الباحثين عن اللّقمة، فأضحى الطّلب على كل شيء يفوق العرض، بما في ذلك كراء الشّقق والغرف.

مستفيداً من التّجارب التي راكمتها سابقاً، ارتأيت أن أخطو بخطوات حذرة في علاقتي برفيق سكني الجديد معاذ. اختار لنفسه الغرفة المطلّة على الشّارع، ورضيتُ أنا بالتي تطلّ على المطبخ الصغير.

ولم نكن نلتقي إلاّ لماما في اللّيل، فدوامه أصبح يخالف فترة دوامي. وكان معاذ كثير الصّلاة والتعلّق بتلاوة القرآن الكريم، وقد أحببت هذا منه جداً، ودفعني احترامي له إلى الاكتفاء بالشّرب في الحانة، وعدم إحضار زجاجاتي معي كما دأبت على ذلك.

وعلى عكسي تماماً فقد كان كثير الاتّصال بأفراد أسرته، شديد التعلّق بالهاتف.

وطوال الشّهر الأول الذي جمعنا، لا أتذكر أننا تناقشنا في موضوع ما، سواء عن العمل أو عن حياتنا الشّخصية، ولا نحن حاولنا ذلك على الأقل، هو في غرفته، وأنا في غرفتي، ولا نجتمع أحياناً إلاّ على وجبة العشاء.

ذات صباح، كان هو في مقرّ العمل، وكنت ما أزال أستمتع بالنّوم في السّاعات الفارغة التي تسبق الواجب. سمعتُ طرقاً متقطّعاً على الباب، ولما تواصل قمتُ من فراشي...

فتحتُ باب الشّقّة على سيّدة ثلاثينيّة، لم تترك مسحوقاً إلاّ ووضعته على وجهها، حتّى صار مظهرها قريباً من هيئة البهلوان!

- صباح الخير. صاحت السيّدة، وقطعة العلكة تقفز داخل فمها من فكّ إلى فكّ.
- صباح الخير. قلتُ، وقد تقهقرت خطوة إلى الوراء،

وأحكمتُ قبضتي على الباب.

- هل معاذ هنا؟

- لا.. ولن يعود إلاّ بعد الظّهيرة.

- وما باله صار يلعب معي مؤخراً؟

- ...!

- هل أنتَ زميله الجديد؟

- تقريباً..

- على كل حال عند أوبته أخبره أن **عَتيقَة** جاءت في الموعد ولم تجده.

- أمرك!

قلتُ الكلمة الأخيرة، وتجمّدت في مكاني أشيّعها بنظراتٍ ثاقبةٍ.

أوصدتُ الباب بلطف، ثمّ قلت، وطيف ابتسامة قد ارتسم على وجهي:

- هكذا إذن يا عم معاذ تحرمني وتنعم أنت بعتيقة!

***

في اللّيل انتظرت العشاء أن يجهز بفارغ الصبر، وقد استحوذت علي فكرة إظهار معاذ على حقيقته بشكل كبير.

- العشاء جاهز! قلتُ.

فأجاب معاذ بفتور:

- لا رغبة عندي أخي.. لقد تعشّيت قبل مجيئي.

قلتُ مخاطباً نفسي بمكر:

- عليّ أن أدخل مباشرة في الموضوع.

ثم بصوتٍ مسموع:

- عتيقة كانت هنا صباحاً.

وما تناهى إلى سمعه اسم عتيقة حتّى قفز من مكانه كهرّ مذعور، وانتصب واقفاً قبالتي:

- من؟ ماذا قلت؟
- قصدي أن عتيقة جاءت في طلبك صباحاً.

فغمغم معاذ:

- هذه المخلوقة ليست طبيعيّة! لا أعلم لمَ لا تفهم!

فقلتُ في سرّي ساخراً:

- انكشفتَ أيّها الفأر الصّغير.
- وماذا قالت لك؟ سألني معاذ بنفاذ صبر.
- لا شيء.. سوى أنها جاءت في الموعد ولم تجدك، أو شيء من هذا القبيل.

لحظتها سحب معاذ الكرسيّ، وانضمّ إلى الطّاولة، لا لتناول العشاء، وإنّما لتصغير الموضوع في عيني. أمّا عتيقة فقد كانت تعلم بعدم تواجده لحظتها، وقد جاءت لتحقيق مآرب هي أعلم بها أكثر من أي شخص آخر، وسؤالها عن كوني زميله الجديد من عدمه أكبر دليل.

- عتيقة مجرد عاهرة أخفّف بها من وطأة حاجتي. قال معاذ بصوت قريب إلى الهمس.

لم أكن أتصوّر أن يأتي رده فجّاً إلى هذا الحد!

لا شك أنّ ما قامت به صاحبتنا قد أزعجه كثيراً، وربمّا هو أيضاً قد فهم حركتها.

- عيبنا واحد أخي معاذ. أجبته غامزاً.

فضحك ملء شدقيه، وربت على كتفي وهو يردّد:

- عيبنا واحد.. هذا هو الكلام.. عيبنا واحد.

وما دام قد انساق إلى هذا الحدّ، قرّرت أن أُسقِط عليه هواجسي، فسألته قائلاً:

- أ لا تخشى الإصابة بالعدوى ما دامت عتيقة كما قلت.. مجرّد عاهرة؟
- بلى.. بلى..
- ... ؟
- لكنّني أتحصّن.
- قصدك أنّك تتحصن بالواقي الذكري؟
- بل بالأدعية والأذكار الدينيّة.

سبب وجيه!

منذ وفاة زوجته وفكرة البناء على امرأة أخرى تشغل باله وتملأ كيانه.

سعى بشتّى السّبل إلى أن يلفت انتباه أبنائه للموضوع، ففي بداءة الأمر جعل يركلُ كلّ ما يصادفه في طريقه من قطط الدّار وكلابها!

وبعدها انتقل إلى صبّ جام غضبه المفتعل على أحفاده، فاحتمى بالتّمارض، وانتهى بالغرق في يم الصّمت المطبق، إلاّ أن جميع محاولاته باءت بالفشل الذّريع!

- لابدّ من سلكِ مسارٍ آخر. قال وقد تصاعدت في صدره آهات حارقة.

وإلى منزل جاره توجّه بخطى متسارعة، فرحّب به الأخير وهلّل، وأصغى

إليه بإمعان وهو يبثّ إليه شكواه.

ولم يبرح مكانه إلاّ وقد أخذ من مستضيفه وعداً بمفاتحة أكبر أبنائه في الموضوع، وفي أقرب الآجال.

***

...

- والدكَ لم يقل عيباً يا ابني!

- ولكن يا عمّي...

- من ابتغى الزواج فقد ابتغى الطاعة. كبّر عقلك يا ابني.. كبّر عقلك!

- فقط ليمهلنا قليلاً حتى ننسى المرحومة ...

- وأنتَ قلتَها.. «**المرحومة**». البركة في الأحياء.. البركة في الأحياء يا بنيّ.

- إن شاء الله خيراً.. إن شاء الله خيراً.

- وخير البرّ عاجله.

***

فصلُ الرّبيع بألوانه الزّاهية وعبير أزهاره الفوّاح، أيقظَ في نفسه، من جديد، حبّ الحياة والتعلّق بأهدابها.

ملأ قنّينته بالماء وسعى شطر البحيرة التي أخذت منها القرية اسمها وشهرتها. تعلّقت به أعين أحفاده ترجوه أن يأخذهم معه، وحاول جرو اللّحاق به، لكنّه كان مصمّماً على الاختلاء بذاته والإنصات لهواجسه ولواعجه.

يريد الزّواج..

وهذا يتجاوز بكثير حماسة النّزوة العابرة. وما زاد من يقينه، أو ما اعتبره إشارة محفّزة، هو رؤيته لزوج من اليمام يداعب أحدهما الآخر، ويستمتعان بتفاصيل العشق البهيّ!

عند أوبته تسابقت بناته للسّلام عليه ولثم يديه، وقد فهم من هذا أنهنّ استدعين أخيراً للبثّ في أمره، أو حتى يكنّ حاضرات على الأقل.

بُسِطت مائدة العشاء وفُرِد عليها ما لذّ وطاب، وقد بذلت بناته وزوجات أبنائه جهداً واضحاً في ذلك، وحولها تحلّقوا جميعاً. بينما بقي الصّغار يتطلّعون بقلوب واجفة وعيون شاخصة إلى نصيبهم من الوليمة في إحدى الغرف المجاورة.

لأوّل مرّة يعتريه كلّ هذا الارتباك، أو هكذا يخيّل إليه. أذعنَ للصّمت كدأبه مؤخراً، وانهمك البقية في الأكل والحديث عن أحوال الطّقس، وبوادر موسم فلاحيّ جيّد.

وحالما فرغوا من تناول الطّعام وُزّعت أكوابُ الشّاي، فنشر شبح الصّمت سجوفه، قبل أن ينطق الابن الأكبر مدارياً خجله، فناقش المسألة من وجهة نظر واقعيّة تكفل حقّ الوالد في الارتباط بزوجة أخرى، يقضي معها ما بقي من عمره. أمّا العريس فكان ينتظر بفارغ الصّبر الاسم المقترح.

وبعد ترقّب طويل هتف لسان المتكلّم بالاسم، فرماه المعنيّ بالأمر بنظرات ذاهلة يسأله من خلالها ما إذا كانت العروس هي السيّدة التي يعرف دون غيرها!

وما هي إلاّ ثوانٍ، حتى انبرت إحدى بناته تُذكّر السّامعين والسّامعات بأخلاق العروس الحميدة، وأصلها الطيب...

- لا أريدها. همر الوالد بامتعاض.
- ولِمَ لا تريدها؟ سِنّها يلائم عمرك و...
- قلتُ لا أريدها.
- ولِمَ لا تريدها؟ إنّها سيّدة محترمة و...
- قلتُ لا أريدها.
- ولِمَ لا تريدها؟ إنّها سيّدة طيّبة الأخلاق والسُّمعة...
- قلتُ لا أريدها.
- ولِمَ لا تريدها يا أبي؟ لِمَ؟
- عَجِيزتُها صغيرة.

!!!

من استرعى الذئب ظلم:

أرخى الليل بثقله فغشيت ظلمته الحي الغارق في البهجة والحبور!

وعلى ضوء القمر، طفق السيّد الذّئب يتجنّب البرك المتناثرة في كل مكان مخافة أن يؤذي ماؤها العكر حذاءه. مدجّجاً بأزلامه وأقزامه المخلصين الخانعين، أخذ يطرق الباب تلو الآخر، ويطمئنّ على قطيع الأغنام، وخاصّة البالغ منها السن القانوني.

وبنظراته الثّاقبة جعل يسبر أغوارها، وكلّما ساوره اليقين بأن ثغاءها لم يتبدل، أمر أحد مرافقيه أن يغدق عليهم بالتبن والكلأ!

وما إن ركب سيارته الفارهة، وخلّف الحيّ البهيج وراء ظهره، حتى أنشأ يتساءل، وفي نفسه حسرات على عدم شبع القطيع:

- ما بالهم لا يشبعون؟ ما بالهم لا يصدحون بالثّغاء إلا إذا لحوا التّبن، وتذوّقوا فواضل العلف؟ ألا يكفيهم أنّني ذئبهم الوفي؟ ألا يكفيهم أنّني أجهد من أجلهم؟ أدفن موتاهم، وأعود مرضاهم، وأحضر أفراحهم وأتراحهم. ألا يكفيهم كل هذا!

***

أوشك الموعد المرتقب، وكان لزاماً على السيّد الذّئب، كما ينصّ على ذلك البروتوكول الحزبيّ، عقد لقاء مع القطيع لتجديد العهد، وتذكير من تناسى، وتهديد من سوّلت له نفسه نقض العهد.

وتحت عاصفة من التّصفيق، والصّراخ، والتطبيل، اعتلى السيّد (المحترم) منصّةً عند مدخل الحي البهيج، وراح يصدح بصوت عالٍ، واضحٍ كوضوح ما يزمع القيام به فور حصوله على رئاسة الأحياء السّعيدة جميعها:

- الذّئب.. السيّد الذّئب.. من منكم لا يعرفه؟ من منكم لا يجدني عند اشتداد الأزمات؟

فصفق أحد الأكباش المتزلفين وزغردت نعجتان!

ثم استتلى يقول، بنبرات تنمّ عن بالغ تأثّره:

- وبالرّغم من كوننا ننتمي إلى فصيلتين مختلفتين، أنتم معشر الأغنام عاشبون وأنا لاحم، إلاّ أنّنا أحبّة والحمد لله.

فصاح القطيع بلسان واحد:

- بع .. بع .. بااااااااااااااااااع
- ستتبدّل الأحوال أيّها الأحبّة الكرام (وكان يقصد الأحوال الجوية)، وسينعم الحي البهيج بالخير الوفير.

كفّ لحظةً ينتظر التّصفيق الذي لم يأتِ، ثم أردف قائلاً بيقين تامّ:

- أعلم ما أنتم بحاجة إليه.. أعلم! وسيكون لكم ذلك إن شاء الله...
سيكون لكم سجن قريب منكم حتى لا تشقوا بعد

الآن كلّما ألمت بكم الرغبة لزيارة لصوصكم ونشّاليكم.

فصاح القطيع:

- بع.. بع .. بااااااااااااااااااع
- ستكون لكم مقبرة جديدة لمن أراد أن يريح عظامه.

فصاح القطيع:

- بع.. بع .. بااااااااااااااااااع
- ستكون لكم مزبلة مترامية الأطراف، وستفتح في وجوهكم ليل نهار حتى تنقّبوا في أكوامها على سجيّتكم .

فصاح القطيع:

- بع.. بع .. بااااااااااااااااااع
- فقط لتطمئن قلوبكم ولتقر أعينكم، فأنا لست كذلك الثّعلب الماكر الذي سبقني، وأنتم تعلمون هذا جيداً.

فصاح القطيع:

- بع.. بع .. بااااااااااااااااااااع
- وما أن أصيرَ رئيساً، قائماً على تدبير شؤون الحيّ السّعيد، حتّى أشرع من فوري في تنفيذ عهودي، والله شاهد على ما أقول.

وقبل أن ينسحب السّيّد الذّئب، اختار أن يعمل بنصيحة أقرب مستشاريه، فختم خطبته بعواء طويل ارتعدت منه الأغنام وارتعشت...

شُطآن المجاهيل:

التقيتُ **بنجاة** وتوجّهنا صوب الشّاطئ، إلى مكاننا المعتاد عند الصّخور السّوداء. كانت هي قد تدبَّرت عملاً في أحد البيوت، ترعى عجوزاً وتسهر على تغيير حفّاظاتها! وكنتُ أنا ما أزال أتنقّل بين المقاهي والمطاعم متسوّلاً أيّ عمل كان.

سألتني عن **خالد**، وكم تأسّفت لما علمت بأنّه ترك المدينة وذهب دون وجهة تذكر! وسألتها عن صغيرتها، فأطلعتني أن وضعها الصحيّ قد تدهور بشدّة في الآونة الأخيرة.

وكانت ابنتها طفلة من **بنات القمر**، تعاني من **مرض جفاف الجلد المصطبغ**، هذا المرض الغريب الذي يفتك بالأطفال ويمنعهم من الظّهور بشكل طبيعيّ إلاّ تحت ضوء القمر عندما تغيب أشعة الشّمس، ويسبّب لهم حروقا جلديّة والتهابات في العين، ويعرّضهم للإصابة بسرطان الجلد والعين، ويختصر أمل الحياة عندهم في حدود العشرين سنة، بحسب خطورة نوعه.

ولولا إحدى الجمعيّات التي تعنى برعاية هؤلاء الأطفال لكانت المسكينة في عداد الموتى. وبالرغم من عدم حديثي ونجاة من قبل عن سبب طلاقها إلاّ أن حدسي ينبئني بأنّ مرض ابنتها هو السبب.

- آه يا نجاة.. آه! لا غيمة تدرأ عنّا حمّارة القيظ اللّهيم، ولا خمائل خضراء اللّون نلجأ إلى ظلالها، ولا شجرة نحتمي بفيئها!
عاريان أنا وأنت بلا دثّار تحت عادية شمس الحياة!
ما أحقر الزمن وقد تجبّر علينا!
لقد تعبتُ يا نجاة.. تعبت.. تعبت...
أما آن لهذا الكابوس أن ينتهي؟ أما آن للفجر أن يبزغ؟ أما آن لنا أن نجنح إلى حياة أندى وأنقى؟

لحظتها وقفت نجاة، فأنشأت تنزع عنها جلبابها!

- ماذا تفعلين أيتها المجنونة؟ سألتها وقد تجلى الدَّهش في عينيَّ.
- سترى حالاً!

غير مباليةٍ بمن قد يمرّ صدفة ويرانا، واصلتْ نزع ثيابها حتّى القطعة الأخيرة، فأخذتْ تتدحرج من فوق الصّخور.

وبخفّة حوريات البحر قفزت محدثة جلبةً خفيفةً على وجه الماء ما برحت أن همدت وامتصّها البحر.

مرتاعاً شرعتُ أنادي عليها، وأنا أنزلق من أعلى الصّخور:

- نجاة! نجاة!

أرجوك ما هذا المزاح الثّقيل؟

أرجوك!

نجاة!

نجاة!

نجاة!

نجاة!

ارتميتُ في البحر بكامل ملابسي، وجعلتُ أغطسُ تحت الماء بحثاً عنها، وأصعدُ إلى السّطح لاستنشاق الهواء.

- نجاة! نجاة!

أرجوك!

أرجوك لا تتمادي في غيّك!

وبينما أنا مذعور كسنجاب صغير أدركته مخالب بومة قبيحة، سمعتُ قهقهة قادمة من جهة الصّخور.

كانت نجاة تضحكُ وتضربُ كفّاً بكفّ!

سبحتُ ناحيتها بما تبقّى لديّ من قوّة. وما بلغتُ الصّخرة الأولى حتى

تسلّقتها وتمدّدت فوقها.

وبرشاقة الوعل الجبليّ دنت نجاة مني، فاعتلت صدري وقبّلتني بشفتيها المالحتين، قبل أن تصيح بي:

- لن أدع الأقدار تتقاذفك لوحدكَ على **شطآن المجاهيل**.

الأمّ الرّؤوم:

تسمّرتُ أمام المرآة ردحاً من الزّمن، فأخذتُ أراقب تفاصيل صورتي التي انعكست على صفحتها!

تفرّست بنظرات تراوحت بين الاستغراب والذّهول ما عُكس عليها، فأدركتُ أن **الأمّ الرّؤوم** تنادي أحد أبنائها. ودون تلكّؤ أو إبطاء انطلقتُ ألبّي النّداء، وقلبي يرفّ كجناحي طائر يجرّب التّحليق في الفضاء الواسع لأوّل مرّة.

وفي الطّريق إليها، فكّرتُ مليّا كيف جاء النّداء مختلفا هذه المرّة!

وما وطأت قدماي ترابها حتّى طفقت الصور تنداح تباعاً، وقد تحرّرت من القمقم.

وفي لحظة تماهٍ واندماجٍ كليّ، شرع لساني يردّد بصوت مسموع:

هذا هو..

العرس الذي..

لا ينتهي..

في ساحةٍ لا تنتهي..

في ليلةٍ..

لا تنتهي..

في ساعةٍ..

لا تنتهي..

هذا هو..

العرس الأوطامي..

هذا هو..

العرس الذي..

لا ينتهي..

في ساحةٍ لا تنتهي..

في ليلةٍ..

لا تنتهي..

في ساعةٍ..

لا تنتهي..

هذا هو..

العرس الأوطامي...

بلغتُ باحة النّادي الجامعي كسير الفؤاد أسيان، إحساس سرعان ما انجلى لما وقع بصري على رهط كانوا يصوّبون نظرهم باتجاهي.

- ها قد أتى ملبيّا النّداء أيضاً!

هكذا صاح أحد الأبناء البررة.

لم أقوَ على تصديق المشهد، وصحتُ بهم بصوت مرتجف متهدّج، ويدين باردتين مرتعشتين:

- أ أنتم كذلك جئتم تلبية للنّداء؟

فأومأ الجميع: **نعم**.

شحبت سحنتي، وامتقع لوني، فعجز لساني عن النطق..

لقد ماتت الكلمات.

اغرورقتْ عيناي، وتقفقفتْ أطرافي، فندّت من الأعماق آهات الشّوق

للوجوه المشرقة، وما هي إلا لحظات حتى انهلتُ عليهم أعانقهم وأقبّلهم الواحد تلو الآخر.

لقد تبدّلت الأجساد، وانصاعت جاثية أمام بطش الزّمن وقسوته، فبرزت البطون كالتّلال الرّابية، واشتعلت الرّؤوس شيباً، وقلّ البصر، وتساقطت بعض الأسنان، فأضحى مشهدها كعقد انفرطت حبّاته وتناثرت!

لكنّ القلوب ظلّت على حالتها الأولى!

يا لغرابة القلب! كيف له لا يشيخُ؟

- أين هيَ؟ تمتمتُ أسألهم بصوت يضارع أنين الظمآن.

فجاء الردّ صمتاً رهيباً.

إلاّ أنّني أعدتُ طرح السؤال كَرَّة أخرى، وقد استفاقت غوامض النّفس الهاجعة:

- أين هيَ؟ ألم تأتِ معكم؟
- **ربّما انقطعَ عنها حبلُ النّداء.**

دمدم صديقي، وهو يضغط على الكلمات بمرارة وشت بها نبرته.

خيط رفيع:

الضياعُ نعيقُ غراب يناديه، والتّيه ملجأه وملاذُه. تلفّع بالأنين وتدثّر بالنّشيج، فغدا وحيداً شارداً والغصّات الحارقة ظلّه!

النّاس من حوله لا إجابات شافية يملكونها على أسئلته! ولا فكرة لديهم عن حجم معاناته!

إنّه يعيش غربة ذاتية، وإنّ إحساساً بالضّياع يلازمه، وإن شعوراً بالعار والنّفي يطوّقه ويقيّده.

- **متى تخرج من قوقعتك؟ متى؟**

بدأ المرض عضويا، فاستحال سجنا نفسياً مؤبداً!

متى تنسلخ من جلدك؟

صحيح أن لكلّ نوازعه الخاصّة، لكنّك غلوتَ فحوّلتها سوطا تجلد به نفسك، حتّى صرتَ تتلذّذ بألمك!

أحقاً أنت تستمتع بذلك؟

هكذا طفِقَ يغمغمُ مخاطبا نفسه، وقد تخيّل أشباح السّدفة تنبعث من قرارة أعماقه لتنهشه بأنيابها.

- **اطرد الأفكار القاتلة من رأسكَ!** قالَ بشجاعة، ثم انبرى يتنفّس بعمق.

شهيق (أغمضَ عينيه)

زفير (فتحَ عينيه)

شهيق (أغمضَ عينيه)

زفير (فتحَ عينيه)

شهيق (أغمضَ عينيه)

زفير (فتحَ عينيه)

ومع الزّفرة الأخيرة وقع بصره على شابّة في مثل سنّه أو أصغر بقليل، وهي تنضو معطفها وتحاول الجلوس إلى إحدى الطّاولات المنتصبة أمامه مباشرة.

لفتَ انتباهه جمالُ وجهها الأخّاذُ، وجسدُها المصبوبُ، وقوامُها الممشوقُ الأهيفُ المليحُ، وشعرُها الأسودُ الفحميُّ المترامي على كتفيها

بغير اكتراثٍ.

وفي لحظةٍ تضارع سطوعَ قبسٍ من نور بين طيّات الظّلمات وغياهبها، أحنى رأسه وتساءل في استغرابٍ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة:

- كيف لم أنتبه قطّ لوجود الأنثى، هديّة الله إلى الكون؟ كيف؟

فإذا به يرفع رأسه ثانية ويحيطها بنظراته المتفحصّة، وإذا بها تتّجه ببصرها ناحية طاولته، وإذا بثغرها يشرق بابتسامة بضياء نور الشّمس الصباحيّ، وإذا بألقٍ يشعّ من عينيها، وإذا برعشةٍ باردةٍ تدبّ في أوصاله كالخدر.

***

وبينما كان يتهيّأ للنّوم، بلغَ إلى مسمعه صوت قرع خفيف على الباب، فأرهف إنصاته استزادة من التيقّن بأنّ بابه هو المنشود. ولما تكرّر الطّرق مجدّداً، انبرى يتحرّى ماهية الزّائر.

فتحَ الباب على شبح شخص وسط عتمة المدخل، فصاح به وهو يمدّ يده لإشعال النور:

- من هناكَ؟

وبأسارير باسمة قال الرّجل المنتصب عند عتبة الباب:

- السلام عليكم ورحمة الله.. أنا جارك الجديد.. **المختار**.

ارتبكَ وهو يستقبل الزّائر، فقال بلهجة نمّت عن شديد اندهاشه بالزّيارة في هذا الوقت من اللّيل:

- يا أهلاً وسهلا بك أخي.. المختار.

ثم أردف، وهو يفسح المجال أمام الضّيف للدّخول:

- تفضّل أخي.. تفضّل!

فخطى المختار وهو يقول:

- بسم الله.. بسم الله...

توسّط الضّيف الغرفة، وبحركة سريعة سحب الغطاء الملفوف حول صحن متوسّط الحجم، وقال بسرور بادٍ:

- أحضرتُ لكَ وجبةَ **الشّيبودان**.

فصمت قليلاً، ثم أردف باعتداد:

- زوجتي **فولامي** تجيدُ طهي هذا الطّبق.

فقال المستضيف، وهو يتناول الصّحن بين يديه ويضعه فوق المائدة:

- ما اسم الطّبق قلتَ لي أخي المختار؟

مبتسماً أجاب المختار:

- اسمه شيبودان، أو يمكنك القول: الأرز بالخضار والسّمك.
- شكراً جزيلا لكَ ولزوجتكَ الكريمة.. حقّا شكراً لكما.
- لا داعي للشّكر، فنحن إخوة وجيران الآن.

جلس الجاران إلى المائدة متقابلين، يتوسّط جلستهما طبق الشّيبودان وملعقتان.

- سنتشارك الطّعام فقط، وأدعك تستمتع بالأكلة لوحدك. قال المختار.
- بل سنقتسمه حتى يثبتُ الأجرُ. ردّ المستضيفُ مبتسما .

وما إن استتبّ بالجارين المقام حتّى أنشأ المختار يحكي، كمن يتقاسم تفاصيل حياته مع صديق حميم يعرفه منذ سنوات، قصّة تعارفه وزوجته السينغالية فولامي!

وقد جاء في معرض حديثه المسترسل، أنّه قابلها أوّل مرّة في إحدى

«السويقات» حيث كانت تبيع بعض الأعشاب، ومستحضرات التّجميل الإفريقيّة، والمكمّلات الغذائيّة، وبعض الحليّ النسائيّة. يومذاك اعتدى عليها أحد الباعة، بغية إجبارها على ترك المكان له، فحال المختار بين البائع وبين الذي سعى إليه.

ومن جملة ما قاله أيضاً، أنّ زوجته فولامي قدِمت إلى المغرب، باعتباره محطّة عبور إلى الضّفة الأوروبيّة. بيد أن حبّهما حال دون تحقيق ذلك، فغيّر قدرهما، وصار المغرب بلد استقرار لها، وحاضناً لقصّة عشق بألوان إفريقيّة، وانصهار كليّ للثّقافات قلّ نظيره.

وتحدّث كذلك عن تعاونهما اليوميّ لتأمين لقمة العيش، وكيف تحمّلا معا المشقّات والصّعاب لعشر سنوات كاملات، حتّى تسنّى لهما توفير ثمن الشّقة المجاورة له.

ولما كان المختار يحكي عن فولامي، كانت صورتها تشعّ من عينيه الواسعتين. وكانت رائحة حبّه لها تفوح من أنفاسه، غير أنّ وجهه اسودّ فجأة، فزفر بأسى بالغٍ، وكأنّ روحه صارت مرتعا لضروب متباينة من العواطِفِ، وقال:

- ينقص حبّنا فقط وليد ينيرُ البيتَ.

فأحاطه المستضيف بنظراتٍ تراوحت بين الشّفقة والمواساة، وقال:

- لا يأسَ من رحمةِ الله.

ازدرد المختار ريقه، وغمغم بنبرةٍ مليئةٍ بالحسرةِ اللاّذعةِ:

- إنّ **خيطا رفيعا** يفصل بيننا وبين سعادتنا الكبرى.
- وإنّه كذلك **لخيط رفيع**.

قال المستضيفُ وهو يسترجع تقاسيمَ الابتسامة المشرقة.

سِتار:

نرجس: (بصوتٍ خافتٍ) لم أهتدْ بعدُ إلى ما عساه يكون لي خلاصا أبدياًّ.

ياسر: (يسعى نحوها في أناةٍ) وأنا الآخر جرّبت المفاتيح جميعها، فلم تجد معي نفعاً.

نرجس: (وكأنّها شاردة ساهية) رأيتك اللّيلة الماضية في حلم جميل يا حيرتي.

ياسر: (يبتسم) وأنا الآخر زارني طيفك قبل أسبوع من الآن!

نرجس: (تتفرّس قسمات وجهه بنهم) سأموت مكويّة بنار خسارتك.

ياسر: (يأخذ وجهها بين يديه) أما أنا فميّت مذ فارقتك، مع وقف تنفيذ الحكم إلى أن تشاء الأقدار.

نرجس: (تنظر إليه صامتة)

ياسر: هل تؤمنين بالخلود؟

نرجس: (تنتزع وجهها من بين يديه، وتستدير، فتسعى مبتعدة ببضع خطوات) ما دمتَ متربّعا على عرش قلبي، فنعم. (تبحلقُ في الفراغ) كيف أنتَ بعد كل هذا؟

ياسر: (يتبعها بخطوات ميتة) كالواضع قدماه في الوحل، فكلّما رفع واحدة، إلا وغاصت الأخرى عميقاً بلا قرار.

نرجس: (تدور حول نفسها نصف دورة، تحيطه بنظراتها، وتبتسم) يريحني ما أسمعُه منكَ.

ياسر: (يسألها بنظراته)

نرجس: (مبتسمة فرحة) لستُ الوحيدةَ التّائهة في بيداء الفراق المقفرة الموحشة.

ياسر: (مماحكا ومستدركا) غير أنّني ما أنفكّ أستظلّ بفيء صدى ضحكاتك.

نرجس: (وقد تبدّلت سحنتها، وامتقع لونها) يا ليتني ما وضعت رصاصة الرّحمة بأيادي أعدائنا!

ياسر: وربّما أحسنتِ صنعاً!

نرجس: حتما تقول هذا من باب الشّفقة.

ياسر: (يدنو منها ناظرا بإمعان) بل يقيناً.

نرجس: (بحالة امتعاض) لا.. لا.. ليس محموداً الذي اقترفتْهُ يداي. (ثم بصوت مرتجف) أعلم بالذي يدور بخلدك.

ياسر: (يبتسم) وما هو؟

نرجس: (من دون أن تنظر إليه، وبصوت هامس) الفراقُ غذاءُ المشاعرِ الصّادقة، والحصولُ على الشّيء يقتُله.

ياسر: (يومئ برأسه مؤكداً) تماماً.

نرجس: (تدنو بحرارة) وماذا إذا كان العكس؟

ياسر: (باستسلام، وبعيون محدّقة إلى بعيدٍ) ستتنامى خسارتي دون أدنى ريبٍ عدّة أضعافٍ.

اقتربي يا حلمَ قلبي المثخن!

اقتربي يا ذنبي الذي لم ولن يغتفر!

اقتربي يا فخرَ أوجاعي، وأسطورة آهاتي..

اقتربي!

لقد عشتُ مكويّا بلظى نار البعدِ عنك، وسأغادر الحياة مهيضَ الجناح، حسيرَ الرّأس، كسيرَ الفؤاد.

(طأطأتْ رأسها، فأجهشَ بالبكاء. نزلتْ دمعة فدمعتان، واشتعلَ اللّهيب في القلبين الباردين.)

...

سِتار!

يومَ اعتزلتُ الفنّ!

قُبيلَ غروب الشّمس وصلت السّيارة التي تقلّني ومساعدي إلى بيت العروس.

وهناك وجدنا في استقبالنا جحافل المتفرّجين والمتفرّجات!

وكما هو الحال عند بداية الحفل، فقد انهمك جيش من الشّباب الجامحين في مساعدتنا على حمل أدوات العمل وإدخالها إلى وسط الدّار الفسيح، حيث ستقام مراسيم حفل الزّفاف. بينما اكتفيت بحمل حاسوبي الشخصيّ، واكتفى مساعدي بإرشادهم إلى كيفية التّعامل مع الأدوات أثناء حملها ووضعها.

وكان جمهور الحفلة ينقسم في الغالب إلى خمس فئات: **فئة أهل العريس، وفئة أهل العروس، وفئة أبناء الدّوار، وفئة الوافدين من المدينة، وفئة السّكارى** (وهي الفئة الأقرب إلى قلبي).

أمّا قانون اللّعبة عندي فكان يرتكز على ترك باب الارتجال مفتوحاً

على الدّوام، واحترام حرمة البيوت، والأخذ بعين الاعتبار غواية حبّ الظّهور عند النّاس، وذكر اسم الوليّ الصّالح للمنطقة بين فينة وأخرى...

دلفتُ إلى وسط الدّار، وأنشأتُ أبحثُ عن المكان الذي سأقضي فيه اللّيلة، وأُديرُ منه تفاصيل السّهرة الطويلة.

وكان اختياره يتحدّد بمعايير عدّة، كأن يتيح لي زاوية نظر أراقب من خلالها كلّ ما يجري، أو يكون مغطى بسقيفة أو ما شابه لدرء شرّ العوامل الطّبيعة الفجائيّة، أو يكون قريباً من مأخذ التّيّار الكهربائيّ، أو يكون محاذياً للباب، لغاية في نفسي لن أصرّح بها.

وهكذا كان، اعتمدت على حدسي وتجربتي، فانتقيتُ مكان مكتب إدارة العمليّات المؤقّت، وأشرتُ لمساعدي بطرف خفيّ أن نعلن عن نفسينا بشكل رسميّ.

- كل شيء جاهز! صاح مساعدي.

فأومأتُ له برأسي دلالةَ التّأييد، وأدرتُ مفتاحَ الموسيقى، فانداح صوت عذب يغنّي:

ساعة سعيدة ما تباع بالأموال..

ضوى المكان والفرحة تهني البال..

بان حبيبي يلالي سحر وجمال..

سحر وجمال..

والحبيب ديالي غير أنا شفتك..

قلبي ارتاح يا سلام

يا سلام..

توالمنا وحلات العشرة..

فرحي.. سعدي.. زيانت الأيام..

يا سلام..

...

وبعدها فتحتُ صوت الميكروفون واستعرضتُ لازمتي المعتادة:

إيه.. إيه

أيوا.. أيوا

Test.. Test

Un.. Deux

Un.. Deux

ثم نبرتُ بوضوح:

- **السلام عليكم..**

مرحبا بالجميع...

تحيّة عطرة للعروسين، بالرفاه والبنين إن شاء الله...

تحيّة للحضور الكريم.. أتمنّى لكم سهرة ممتعة برفقتي، وبرفقة صديقي.

1. علبة المارلبورو:

اقتربَتْ من مجلسنا فتاة مراهقة، حتّى إذا دنت مني دسّت في يدي ورقة ماليّة، وهمستْ في أذني قائلة:

- من فضلك dj أغنية: « هادي كدبة باينة «، ولا تنسى أهل العروس!

أجبتها بابتسامة خفيفة، ولبيّت طلبها الموسيقيّ على عجل.

وفي تلك الأثناء توسّطت السّاحة الفسيحة شابّتان في مقتبل العمر، بالإضافة إلى الفتاة المراهقة، وانطلقن جميعاً يرقصن على إيقاع الأغنيّة، ويردّدن كلماتها بإتقان.

فجأة سقطت علبة مارلبورو أرضاً، فاشرأبّت الأعناق تعاين الصّيد الثمين، وتجمّدت الرّاقصات في مكانهنّ دون حراك.

أما أنا فلعنتُ في سرّي حمّالة الصّدر الخائنة!

2. زغردي يا مريم!

أرخى الليل بثقله..

ومع تقدّم السّهرة تحلّق حولي بعض شباب الدّوار، فكان منّي أن رحّبت بهم واستلطفت تواجدهم بجواري، فخلقنا جوّا مرحاً.

وبين لحظة وأخرى كنت أسمع أحدهم يقول:

- زغردي يا مريم!

فيتناهى إلى سمعي صوت أقرب إلى العويل منه إلى الزغردة، دون أن يقع بصري على صاحبة الصّوت، فقد كانت تتوارى خلف الجموع المتجمهرة!

ولما حان وقت تقديم وجبة العشاء تحلّق القوم حول الموائد، إلاّ مريم فقد ظلت قابعة في مكانها. ومن مسافة عدة أمتار لاح لي طيفها، وهي تستجدي القلوب.

انتزعتُ فخذ دجاجة ووضعته بين ثنايا قطعة خبز، ثم اعتذرتُ لمن كان يشاركني المائدة، وأخذته إلى مريم حيثُ هي.

توجّهت نحوها بخطى وئيدة، وفي أذني يتردّد صدى الكلمات التي سمعتُ قبل لحظاتٍ:

- مريم امرأة مجنونة. لا نعلم من أين جاءت! ولمَ اختارت دوّارنا؟

دنوتُ منها فرفعتْ بصرها، وركّزت نظراتها باتّجاه عينيّ.

ارتبكتُ لبرهةٍ قبل أن أبسط لها يدي لإعانتها على النّهوض. لقد كانت المسكينة غارقة في الإهمال بأسمال بالية، وشعر أشعث متّسخ، ويدين قذرتين. لكنّ نظراتها كانت صافية صفاءً خالياً من الشّوائب، وعميقة إلى حد بعيد.

وإذْ انتصبت واقفة وقع بصري على بطنها المنتفخ!

3. صعق كهربائي:

- هناك تيّار كهربائيّ خفيف يمرّ عبر الميكروفون! همس مساعدي في أذني محذّراً.

تناولت الميكروفون بين يدي وجعلته قريباً من فمي، ثم تذوّقته بلساني.

- خفيف جدًا. أجبته من فوري مطمئناً إيّاه.

محاطةً بأهلها وأهل زوجها خرجت علينا العروس في لباس أمازيغيّ فتّان.

وكما تقضي بذلك أصول الحرفة، فقد استقبلتها بأهازيج **أحيدوس** من أعماق جبال الأطلس الشّامخة.

وفي عزّ الفرح الذي غمر جنبات المكان، سارت صوبنا أمّ العريس وطلبت منّي أن أناولها الميكروفون حتى تغدق علينا بزغرودة عريضة مجلجلة تعبّر بها عن كل ما يمور في طويّتها.

أعطيتها ما أرادت.

وما أمسكت السيّدة بالميكروفون حتّى أنشأت ترتجف في مكانها!

وفي لمح البصر مدّ صديقي يده فقطع التيّار!

إلى مكتبتي

4. رقصة السّامبا:

غمزني مساعدي، فأشار بنظره إلى شخص كان جالساً قبالتنا، وهو يرمي إلى أنّه الوحيد الذي لم يرقص بعد.

حدجتُ صاحبنا بنظرات فاحصة، فألفيتُه غارقاً في عبّ أنفاس متلاحقة من لفافة حشيشه.

- أيّ تعويذة ستحرّر هذا المارد من قمقمه؟ تساءلتُ في سرّي.

يمّمت وجهي شطر الشّرق فاخترت **الركَّادة**، وما هي إلا ثوانٍ حتى غصّت الساحة بالرّاقصين، إلاّ صاحبنا فقد لبث في مجلسه مبهوتا!

توجّهت شمالاً فاخترتُ **الطقطوقة الجبلية**، ثم غرباً فاخترتُ **الهيت الغرباوي**، ثم إلى مراكش فاخترت **الدقّة المراكشيّة**، ثم عرّجت على **العيطة العبديّة**، **فالمسفيويّة**، **فالحوزيّة**... دون إحراز نتيجة تذكر!

- ولِمَ لا أجرّب **الهيت الحيّاني**؟ قلتُ وأنا في شكّ من أمري.

ولكم أن تتخيّلوا كيف انتفض صاحبنا من مقعده، وجعل يرقص **رقصة السّامبا** على إيقاع الهيت الحيّاني!

5. توديع أسطوريّ:

عند حوالي السّاعة الرّابعة صباحاً أجلتُ بصري من أقصى اليمين حتى أقصى الشّمال، فلاحظتُ حركة خفيفة تدبّ أمام غرفة العروس.

استبشرتُ خيراً، وأنشأتُ أجهّز أغنية الزّفّة الأخيرة، ثم غمغمتُ في دواخلي بنوعٍ من الارتياح:

- وأخيراً ستنتهي هذه الليلة!

سدّدتُ بصري باتّجاه باب الغرفة المنشودة وركّزته.

خرجتْ أوّلاً أخواتُ العريس، فلحقتهنّ والدته وعمّاته وخالاته. ثم اصطففن أمام الباب، مشكّلين صفّاً صغيراً، وجعلن يهتفن:

عطيونا ديالنا نمشيو فحالنا..

عطيونا ديالنا ما بقاتش ديالكم..

عطيونا ديالنا نمشيو فحالنا..

عطيونا ديالنا ما بقاتش ديالكم..

...

وفي غضون دقائق خرجت أمّ العروس غارقة في دموعها، ومن خلفها أختها الوحيدة تئنّ من لوعة الفراق الوشيك. وأثناء ذلك تحديداً فتّشت بعينيّ عن والدها، فلمحته يبكي بحرقة عند باب الدار!

بخفّة الدوريّ أمطرتُ الأجواء بلحن أغنية الخروج الأخير.

ومن حيثُ لم يتوقّع أحد، أمطرتْ علينا السّماء بوابل من الحجارة!

وفي وقت وجيز صار الحفل ساحة حرب وقتال!

زيّ رسميّ!

وقفتُ عند مدخل المقاطعة الإدارية، أعاينُ باندهاشٍ عدد الموظّفين وأقارنه بعدد المرتفقين. ثلاثة موظّفين، امرأة خمسينيّة تقلّم أظافرها وتطالب القوم بالصّمت وانتظار الدور، ورجلان في مثل سنّها، الأوّل نخره التّدخين والجلوس، والثّاني بحّ صوته من كثرة المناداة على الأسماء، مقابل أكثر من ثمانين مرتفِقا!

كانت المقاطعة ضيّقة المساحة ممّا جعل الزحام داخلها خانقاً.

حاولتُ أن أفتّش عن صفّ أقف عند مؤخّرته وألتزم بدوري، فما رأيت إلا كومة من البشر يتزاحمون ويتدافعون كديدان الأرض!

وبعد عناء شديد شققتُ لنفسي منفذاً من بين الجثث المتراصّة، فدسستُ أوراقي من خلال الفتحة الصّغيرة عند أسفل الحاجز الزجاجيّ الذي يفصل الموظّفين عن المرتفقين.

- أين هي الوثائق الأصلية؟ قال الموظّف بعصبيّة.
- هنا.. تفضل!

عاينهم بامتعاض، ثم قام بما يلزم، وصاح بي:

- واجب الرّسوم.

فأجبته بسذاجة:

- أيّ رسوم!
- الرّسوم المتحركة!

صفنتُ في مكاني بلا حراك.

- إليّ بواجبِ التّمبر! زعق الموظّف وهو يشير إلى نسخ الوثائق بين يديه.
- وهل طلبتُ منكَ ذلك؟
- يا سلام..! يا سلام! وهل كان عليّ استشارة سيادتكم الموقّرة؟

فقلت ببلاهة مصطنعة:

- أعتقد ذلك!

فدمدم صوت من الخلف:

- هل سنبيتُ هنا!

وهتف آخر:

- هذا ما كان ينقصنا!

بل هذا ما كنتُ أودّه وأنتظره، أن يتحرّك المدّ البشريّ من خلفي، حتى أقلب الطّاولة على الموظّفين الثلاثة، في انتظار استفزاز من هو أكبر منهم.

كثر الشدّ والجذب، هو يطالبني بدفع الواجب، وأنا أصرّ من جهة على أنّني معطّل لا مال أملكه حتّى أدفع به أيّ واجب من أيّ نوع، ومن جهة ثانية أحمّله مسؤوليّة تسرّعه دون استشارتي.

تصاعد اللّغط والصّراخ، واحتدم التّدافع والتّداخل من خلفي، لكن فجأة توقّف كلّ شيء فساد الهدوء، وسمعت إحداهنّ تقول:

- لقد حضر سعادة (القايد).

استدرتُ، والابتسامة تعلو وجهي، فوجدتني وجها لوجه مع زميلي السّابق في السّكن الجامعي (مناضل سابق في صفوف الحركة الطلاّبية ومعتقل سياسيّ) **بزيّه الرّسمي!**

مذكرات فتاة عانس:

:10/06/2001

لأول مرّة أشعر بثقل يرهق كاهلي، فكوني أنثى في السّابعة والعشرين من عمرها، عازبة، وحاصلة على الإجازة في الدّراسات الأساسية، وعاطلة عن العمل، أمر بدأ يضايقني.

:13/07/ 2002

وما الذي كنتِ تفعلينه في الجامعة؟ أليست هذه الأخيرة الهدف منها الحصول على زوج؟

كانت هذه كلمات إحدى عماتي!

02/2003/:22

بزوغ تبعه أفول!

11/2004/:11

أسعدني جدّاً حصولي على فرصة عمل، قبل أن يفسد ابن صاحب الشركة الأمر برمّته لما تجرأ ومدّ يده صوب شعري.

05/2005/:14

العودة إلى جو البيت الخانق، والتعلّق بخيط الأمل من جديد!

09/2006/:07

عدّاد العمر فاق الثلاثين بسنتين، ومعه زادت نداءات الجسد!

10/2007/:03

أفكّر فعلياً في الإنصات والخضوع لرغبات جسدي، بيد أن السؤال التّالي يؤرقني: هل سأقوى على محاسبة الضّمير؟

12/2008/:19

في البداية لاحت ملامح قصّة حبّ في الأفق، وفي النّهاية اتّضح أنّها كانت مجرّد نزوة عابرة لا أقلّ ولا أكثر!

04/2009/:27

حصلتُ أخيراً على وظيفة عموميّة، وأوّل تهنئة بلغتني كانت كالآتي:

الآن فرصتك في الحصول على زوج قد تضاعفت!

هنيئاً لك!

15/06/2010

مركزيّة الحصول على زوج تدور في فلكها جميع المواضيع الأخرى، فلا

أحد يهتمّ بما أقوم به من واجبات اتجاه نفسي ووطني، لا أحد يهتم إطلاقا.

الكلّ يسألني عن الزّوج، وبعضهم اقترح عليّ زيارة إحدى العرّافات لفكّ السّحر، وعدم التّوفيق الذي يلازمني بهذا الشّأن!

08: /01/2011

أصبحتُ أريدُ زوجاً فقط لسدّ أفواههم، ومقاومة العنف الممارس ضدي، فالجميع يرميني بنظرات فيها من القسوة ما فيها، والكثير من الاتهام!

25: /07/2012

وكم كانت رغبتي هذه السّنة في السّفر وتغيير الأجواء شديدة! غير أن فتاة تشغل محرك سيارتها، وتنطلق لتجوب أنحاء البلاد طولاً وعرضاً أمر غير مقبول، فأنا بحاجة إلى زوج يمنحني المشروعية لأفعالي!

09/2013/:19

- حتّى بُشْرى تستحق ما هي عليه الآن، فلو كان في قلبها ذرّة خير لكان الله قد منحها زوجاً يسترها!

هكذا قالت آخر صديقاتي، قبل أن أجد نفسي مجبرة على إنهاء علاقتي بها هي الأخرى، فالظّاهر أنّها تناست أنّني غير متزوّجة!

ولكن هل صحيح أن الله تعالى يعاقب بعدم الزواج؟

03/2014/ :18

أفكّر مليا في اقتناء مسكني الخاص بقرض بنكيّ، وتبنّي طفل أو طفلة، أحسن إليها(ها) وأتّخذ(ها) لي مؤنساً(ة) وسنداً.

لكن أ لن يعتقدوا أنّني أحاول إخفاء (جُرْمٍ ما) بفكرة التبنّي؟

06/2015/:14

مع تقدّمي في السّن، ونظراً لطبيعة بيئتي، وأحكامها، واعتباراتها الخاصة، فقد بدأتُ أتقبّل أموراً ما كنت لأتنازل عنها يوماً، كأن يكون الزّوج

المنتظر مثلاً قد سبق له أن كان متزوّجاً من قبل، أو أن يكون شبه عاطل عن العمل، أو فقد زوجته وله أبناء منها...

أودّ، ورغبتي كبيرة في ذلك، أن أملأ الفراغ وكفى.

08/2016/:05

لقد صرتُ أرتدي ثوب الضّحية السّهلة في عيون واو الجماعة، ووشاح المتّهمة في عيون نون النّسوة! أستطيع رؤية صورتي بجلاء في أعينهم.

02/2017/:11

لا أقوى على تحمّل انقطاع العادة الشهرية عنّي للأبد، وتوقّف مبيضي عن إنتاج البويضات!

أستطيع -نسبيّاً- تحمّل بقائي بدون زواج، لكنّني لا أظنّ ذلك في حال ما شاءت الأقدار وحرمتني من الأبناء للأبد.

آه ما أصعب اللّحظات التي أمرّ بها!

12/2018/:29

أيّ ذنب عظيم هذا الذي اقترفته حتّى أنال ما نلته من إخوتي، وعائلتي،

وأصدقائي، ومجتمعي بشكل عام؟

أنا بشر مثلكم يا جماعة..

أنا بشر مثلكم..

بشر مثلكم...

البوح الأخير:

- أي جزء تريدني أن أبدأ به يا بنيّ؟
- منذ بداية إدراكك للوجود يا جدّي.
- إنّ الأمر لشاقّ عليّ يا بنيّ، وكما ترى فأنا رجل مسن، قد تجاوزت القرن بعقدين تقريباً.
- وهنا الملحميّة يا جدّي، هنا الملحميّة، فأنت من المعمّرين القلائل، أطال الله في عمرك، ومتّعك بمزيدٍ من الصّحة والعافية.
- على كل حال سأحاول.

نطق جدّي ذلك، فعدّل من مجلسه، ثم تنهد بعمق وقال:

- إنّني أرى الطفولة بعيدة كالسّراب وسط البيداء يا بنيّ، وما أذكره بشأنها قليل جداً، يتعلّق باللّيلة التي قُتل فيها والدي رحمه الله تعالى. وقد كان قائد القبيلة، ومنصب كهذا في ذلك الزّمان كان

كفيلاً بأن يصنع لصاحبه عدداً لا حصر له من الأعداء.

وبينما كنّا نحن الأربعة، أنا وأختي وأمي وأبي، نتناول وجبة العشاء، اقتحم علينا المنزل رجال كانوا يحملون البنادق، وبدون مقدمات أطلقوا النار على والدي، فأردوه قتيلاً.

كفّ جدّي برهة، فأضاف وطيف الذكريات يحوم فوق رأسه:

- لقد رأيت والدي يسبح في بركة من الدّماء، ويحاول جاهداً النّهوض لاحتضاننا وحمايتنا من أولئك الأشرار. وكم جعلت منه تلك اللّحظة بطلاً، ورمزاً للأبوّة، والزّوج الشّجاع المدافع عن أسرته، حتّى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة!

لكنّ الجبناء كانوا قد جاؤوا من أجله فقط، فاكتفوا بسلبه حياته، وفروا كالجرذان.

وبمقتله انقلبت حياتنا رأساً على عقب، فانتقلنا من الغنى والخير الوفير، إلى الفقر والحاجة الشّديدة.

وبعد هذه الواقعة بسنواتٍ قليلة تزوّجَتْ أختي، فانسحبتْ والدتي إلى مثواها الأخير، مكويةً بنار الغدر، وذهبتُ أنا للاشتغال عند إحدى

العائلات من معارف والدي السابقين.

وهناك تعلّمت كلّ ما يتعلّق بأمور الفلاحة من زرع، وحرث، وحصاد...، وخلال تلك الفترة أيضاً تعرّفتُ على طيّبة الذّكرى جدّتك رحمها الله، وقد كانت تشتغل وأسرتها عند العائلة نفسها.

طلبتُها من والدها، فقبل وتزوّجنا على شرط أن أصطحب زوجتي، وأبحث لنا عن بيت يأوينا، وشغل يكفي حاجاتنا البسيطة، والتي لم تتجاوز في أغلب الأحيان خبزاً وزيتاً وزيتوناً.

وهكذا اشتغلت أجيراً، أقوم على زراعة الحقول، مقابل حصتي من المحصول، وتوفير السكن لنا.

فبدأتُ وجدّتَك في رحلة الكسب، والعيش الحلال. وكم ساعدتني المسكينة! فقد كانت تستيقظ وبزوغ الفجر، فتفرغ من شؤون البيت، وتلحق بي إلى الحقل، حيث كانت تقضي النهار بأكمله معي.

وتوالت الأيام، فرزقنا بطفلنا الأوّل، والذي لم يعش طويلا بسبب مرض غريب انتشر في تلك

الأيام، فتك بالعديد من الأطفال. غير أننا تقبّلنا الأمر، وشكرنا الله على ما أعطى، فشكرناه على ما أخذ، وكان لنا في الخمسة أبناء الذين أتوا بعده العزاء الكبير. وكانت والدتك آخر العنقود، وقد تركَتها جدتك وهي في سنّ السّابعة تقريباً.

- وكيف ماتت المسكينة؟
- ألم تخبرك والدتُك بهذا؟
- أخبرتني بأنها ماتت كما يموت الجميع.
- أجل ماتت كما يموت الجميع، إلا أن وفاتها كانت حدثاً مأساويا بحق.

صمت لحظتها جدي، فأضاف والألم يملأ كيانه:

- لقد زلت قدمها وهي تحاول جلب الماء من البئر. وما إن سمعتُ صرختها حتى خرجت إليها مسرعاً، وبمساعدة بعض الجيران حاولنا إنقاذها، إلا أنّها كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة.

لم تمت المسكينة بسبب الغرق، بل ماتت من شدّة ارتطام رأسها بجدار البئر الصّخري. وكم آلمني موتها يا بنيّ!

أجهش جدّي بالبكاء، وتجمّدتُ أنا في مكاني، وبقيتُ أتطلّع إليه بقلب واجفٍ وفؤادٍ كسيرٍ.

مرّت اللحظات ثقيلة مليئة بالحزن، وما هي إلا لحظات حتّى استجمع جدّي قواه، فاستتلى يتخلّص من ثقل الذكرى، وبصوت خفيض قال:

- رحلَت العزيزة، وفاتها، لحسن الحظّ، أن تشهد على «**عام الجوع**».
- عام الجوع!
- أجل يا بنيّ. عام عانينا فيه، نحن المغاربة، من القحط والجفاف والمجاعة، بسبب إجراءات فرضتها سلطات الحماية الفرنسية وقتذاك، بخصوص المواد الغذائية الأساسية، وطرق شرائها، وصيغ توزيعها. وكل ذلك كان بهدف تصريف أزمتها على حسابنا، والتي كانت تتمثل في الخصاص المهول الذي وقع في فرنسا من جراء الحرب العالمية الثّانية.

  وقد وجدنا لأنفسنا وجبات من الجراد، والنباتات والحشائش على قلتهما، والبلّوط، كبديل لمقاومة الجوع. كما صرنا نطارد الحيوانات، ونفتش عنها في الجبال والوديان والسّهول من أجل اصطيادها

وأكلها، فلم نعد نبالي إذا كان أكلها حراماً أم حلالاً، وكل ما شغل بالنا هو ملء بطوننا، وبطون صغارنا.

ومن النّاس من باع قطعاً أرضية مقابل خبزة واحدة، في الوقت الذي فضّل فيه البعض الآخر بيع جميع أملاكه والهجرة إلى المدينة، على أمل أن يجد هناك ظروفاً أفضل، إلاّ أن صدمتهم كانت عنيفة فور وصولهم ورؤيتهم للجثث وهي متناثرة في الشّوارع تنهشها الكلاب!

ولم يتوقف الأمر عند هذا فقط، بل تفشّت الأمراض والأوبئة بسبب الجوع وقلة النّظافة، فظهرت الحمى الصّفراء، والتّيفوس، والزّهري، والسّل...، أمراض فتكت بعشرات الآلاف من المواطنين، بمن فيهم أحد أخوالك رحمه الله.

لقد طُويت صفحة «**عام الجوع**» مع أوّل هطول للأمطار، واستجاب الله لدعواتنا، فرحمنا بسنوات من الخير والخصب، ومعها اندملت جراحنا نسبياً، وبقيت عاقداً العزم على عدم الزّواج، ولكنّ فكرة كهذه، أمام قوة الواقع، هي

مجرّد كلام فارغ لا غير...

وما وطأت قدما زوجتي الثّانية البيت حتّى عمّ معها الخير الوفير، وقد كانت امرأة شاطرة، وصاحبة واجب، والحقّ أنّها خُلِقَت لتغمر الناس حباً وكرماً.

رُزِقت منها بطفلة، وفقدتها عند الولادة الثّانية، إذ ماتت المسكينة والجنين الذي كان في بطنها. وبوفاتها دخلتُ مجدداً في دوامة من الحزن والأسى. وكم مرة رأيت الموت يتوارى وراء الباب، ويتطلع إليّ بمكر واستهزاء، فكنت أخالُه قد جاء من أجلي، غير أنه كان يأتي شامتاً فقط.

- وهل الموت يُرى يا جدي؟
- أجل يا صغيري أجل، لقد رأيتُه عدّة مرّات، ورجوتُه أن يأتي من أجلي، وأخبرتُه أنّ الفقد المتواصل قد أرهقني، وأن علّة جسدي تعذّبني. لقد تضرّعت إليه صاغراً، في أكثر من مناسبة، أن يخلصني من لعنة الحياة، لكنّ الجبان كان يأبى دائماً.
- وما سرّ لقب «**الرْبَحْ**» يا جدّي، فالقليل من

يعرفك باسمك الحقيقي؟

- «**الرْبَحْ**»

قهقه جدّي مطوّلاً، وضرب كفّاً بكف، ثم قال وقد تحرّرت مهجته من أوزار الكدر والغمّ:

- وأمّا هذه فحكاية جميلة من زمن الصّحة والعافية، وحلاوةِ سنّ الأربعين. وقد كنتُ ذات ليلة أراقص سيّدة في أحد الأعراس، وفي لحظة الفرح الغامرة والتماهي مع العزف، والانبهار برقصها المنتظم، بدأت أفرش لها طرف جلبابي وأردّد: **الرْبَحْ**.. **الرْبَحْ**.. **الرْبَحْ**...، فأخذها أصدقائي عنّي ولقّبوني بها إلى يومنا هذا.
- يبدو أنك كنت صاحب شخصية مرحة يا جدّي؟
- بكل تأكيد يا بنيّ.. بكل تأكيد.
- وزوجتك الثالثة؟
- زوجتي الأخيرة أنت عرفتها يا بنيّ، وولِدتَ في حياتها.
- أجل رحمها الله، لقد كانت تحسن معاملتي وتحبّني كثيراً، وقد رأيتك يوم وفاتها حزيناً تذرف الدمع كطفل صغير!

- لأنّني لم أكن أتوقّع وفاتها قبلي، وقد كانت المسكينة تعينني، وأنا الشيخ العليل، على تدبّر وقضاء العديد من أموري الشخصية.

ولأصدقك القول يا بنيّ، فقد رأيت حالي بعدها في صورة سيئة مزرية.

- لكنك تملك أبناء وبنات يحسنون معاملتك، وهذا مكسب كبير في آخر العمر يا جدّي.

- لندع هذا الشأن جانباً لو سمحت يا بنيّ.

- أعتذر منك يا جدّي، فيبدو أنني قد أزعجتك كثيراً.

- بل آنستني وملأت وحشتي.

- وبدوري سُرِرت جدّاً بحديثنا الشيّق هذا، وعندي سؤال أخير لو تكرّمت يا جدّي قبل أن أدعك لترتاح قليلا.

- تفضّل يا صغيري.. تفضّل!

- سأسألك بخصوص والدتي، وعدم التحاقها بالمدرسة. فهل هذه الأخيرة لم تكن موجودة حينها؟ أم أنّ هناك أسباباً أخرى؟

- بلى يا بنيّ.. بلى، لقد كانت المدارس بأعداد

قليلة، وكنّا نرسل إليها الذكور دون الإناث. ولا زلت أتذكّر يوم جاء مبعوث من دار المخزن يطالبني بإرسال والدتك وخالتك إلى المدرسة، إلا أنّني فضّلت قضاء أسبوع في السّجن على إرسالهما معه.

- غريب هذا الأمر!
- هو كذلك الآن يا بني، أمّا وقتها فكان طبيعياً، وكنت سأكون أعجوبة زماني لو أنني تجرّأتُ وأرسلتهما.

لحظتها دلفت خالتي إلى الغرفة، فقطعت حديثنا الذي كان قد أوشك على الانتهاء، وبعدما ألقتِ التّحية على كلينا طالبتني بالخروج، حتّى يتسنّى لها إعطاء الدواء لجدّي، وتغيير ثيابه، فأذعنت لطلبها عن طيب خاطر، وقبّلت جدّي، وأخبرته بأنّ لقاءنا سيتجدّد غداً بحول الله.

وفي الغد عدت لزيارته، واستئناف حديثنا، إلاّ أنّني وجدتُ المسكين في وضع صحيّ سيّء. وما أن رمقني حتّى لوّح إليّ بيده أن أقترب منه، فدنوت منه كما أمر.

- أخيراً.. سأرتاح.. منّي.

همس في أذني بصوت متقطع.

الغرفة 312:

أدمنتُ الإطلالة الصّباحية على وسط السّاحة الجامعية من نافذة « **تايتانيك**» الشّرقيّة في الطّابق الرّابع.

وتايتانيك هو لقبٌ أطلقه الطّلبة على حيّهم الجامعيّ، والأكيد حتماً أن من أطلق عليه هذا الاسم لم يواجه صعوبة في ذلك، فيكفي رؤيته والأنوار تزيّنه ليلاً حتّى تدرك أنّك حقّاً على متن تايتانيك.

وزادت دقّة الاسم دلالةً وتعبيراً عندما لاقى نفس مصير السّفينة الشّهيرة، فهي غرقت بحراً، وهو غرق برّاً بعدما تقرّر هدمه!

فأمّا غرق الأولى فخلّف علاقة حبّ معلّقة، وأما غرق الثاني فقد خلف عدداً لا حصر له من العلاقات الإنسانيّة، والذّكريات، والأحلام المؤجّلة...

مكاني الأثير ذاك كان يتيح لي رؤية أمواج الطّلبة، وهم يسارعون الخطى للوصول إلى مدرّجاتهم قبل بداية المحاضرات.

وكعادتي كنتُ أقف هناك، أرتشف قهوتي على مهل، وأتفرّس الوجوه، وأحاول إعطاء أسماء لأصحابها. وفي بعض الأحيان كنت أتوقع حواراتهم أيضاً!

وعند انخفاض مستوى التدفّق البشريّ، كنتُ أدرك بأنّ وقت استكمال الجولة، في أروقة طوابق الحيّ الجامعيّ، قد حان، فأبطئ خطواتي، وألتقط بنهم روائح القهوة والشاي المنبعثة من الغرف، وأرهف السمع لاستقبال ضحكات الصباح الأولى، والغمغمة الصادرة ربما بسبب نقاشات لم يكف اللّيل بطوله لوضع نقطة نهاية لها.

تابعتُ السّير بخطى وئيدة، فسعيتً ناحية النّافذة الغربيّة لتايتانيك.

ولما اقتربت من نهاية الرّواق لمحت جسماً بشرياً يفترش الأرض، ويغط في نوم عميق !

وما هي إلا أن قفلت راجعاً شطر الغرفة رقم 312 مهرولاً مرتاعاً.

ألفيت أصدقائي الثّلاثة، الذين كنت أتقاسم معهم السّكن، يهمّون بالخروج للالتحاق بمدرّجاتهم، فطلبت منهم دقيقة واحدة لتوضيح أمر مستجدّ.

وبملامح تشي بما يجيش به صدري، وبصوت متقطع صحت بهم قائلاً:

- أ تدرون ما رأيته توّاً؟

فرمقني الثلاثة بنظرات استفسار. ومن فوري أردفت:

- لقد رأيت طالبا يفترش الأرض بالقرب من الدرج ناحية النافذة الغربية للطّابق الرابع.
- وما شأننا نحن!

قال أكبرنا سنّاً، وقد تلفّع صوته بالبرودة، بينما التزم صديقانا الآخران الصمت.

- شأننا أن نعرض عليه السكن معنا، نحن أربعة وبإمكاننا إضافته تحت السّرير. قلتُ بحماسةٍ.

رد كبيرنا بنبرة هازئة:

- ولماذا نشدد الخناق على أنفسنا برأيك؟
- كي نساعد هذا المسكين احتراماً لإنسانيتنا.
- أنت شخص عاطفيّ، وهذه العلّة ستدفع ثمنها آجلا أم عاجلاً.
- لنترك القرار للتصويت. قلت هذا ورفعت يدي لانضمامه، فظهرت نتيجة التّصويت سريعاً، وكانت ثلاثة مقابل واحد. فاستتليت قائلًا:
- الأغلبيّة تقرّر، والأقليّة تنضبط. سأذهب لدعوته حتّى ينضمّ للسّكن معنا.

وكذلك فعلت، وما أن بلغت موضعه حتّى وجدته على الحال الذي تركته عليه، ملصقاً يديه برجليه من شدّة البرد!

- مرحباً! غمغمتُ بصوت خفيض.
- ...
- مرحبا!

فحدّق إليّ بنظرات المستيقظ من نوم عميق، قبل أن ينهض بسرعة، وهو يحاول تعديل ملابسه، ومسح وجهه بيده.

- مرحبا يا رفيق..
- عذراً يبدو أنّني أزعجتك؟؟
- لا.. لا إزعاج إطلاقاً. لقد غفوت قليلاً. رد بنبرة جامدة.
- هل تبيت هنا؟
- مؤقتاً.. نعم. أجاب وهو يرميني بنظرات وجلة.
- وهل عندك مكان تتدبّره لاحقاً؟
- ليس لديّ، لكنني سأتدبّره.
- إذا كان يناسبك، فتعال لتعيش معنا في الغرفة رقم 312. لدينا مكان شاغر هناك.
- شكراً.. شكراً...

- حسنا نحن بانتظار قدومك.

قلت كلماتي الأخيرة، فانسحبت تاركا إيّاه يجمع شتات أغراضه.

وبعد لحظات معدودات طُرق الباب، ففتحت، وكان هو منتصباً بطوله الفارع وعينيه الداكنتين، يحمل في يده كتاباً، ويضع على ظهره محفظة متآكلة.

رحّبت به، وعرّفته على أعضاء الغرفة، فبادلنا الترحيب بخجل وكلمات قليلة.

ولما سألناه عن اسمه، أخبرنا أن اسمه **سمعو**، ولما سألناه عن أغراضه، أشار بسبابته إلى الكتاب والمحفظة!

- وأين هي ملابسك؟ سألتُه بذهول.
- ها هي، فأشار إلى الملابِس التي يرتديها!

لحظتها سحب كبيرنا بطانية ووسادة، فأشار إلينا بعينيه أن نقدّم له ما استطعنا إليه سبيلا.

وفي النّهاية حصل على ثلاث بطانيات، ووسادة، بالإضافة إلى غطاء من القماش، ومكان من تحت السّرير الحديديّ، بعد أن تعاونا جميعا على قلبه.

وهكذا انتهت مراسيم التّرحيب بالزّائر الجديد، فجلست إلى طاولتي،

حتى أراجع استعداداً للامتحانات الموشك موعدها، بيد أنّني لم أستطع التركيز، فقد فكّرت مليّاً في موقف صديقي كيف عارض استقدام الطّالب الجديد لما أُثيرت المسألة، وكيف كان أوّل من سحب البطانية والوسادة فور وصوله!

فكّرت أيضاً في قوله إنّ لعنة العاطفة ستصيبني لا محالة!

فهل صحيح ما قاله؟ وكيف لي أن أدفع الثمن كوني عاطفياًّ؟ أليست العاطفة أنبل شعور إنساني على الإطلاق؟

***

استيقظتُ ذات صباح، وكانت عندي محاضرة أحرص دائماً على حضورها، فأخذت أسارع الزمن حتّى أصل في الوقت المناسب. أشعلت الموقد، فوضعت فوقه إبريق الشّاي، وباشرت في ارتداء ملابسي.

وقتئذ أثار انتباهي حركة في مكان سمعو، فناديته:

- سمعو؟
- نعم..
- ألم تستيقظ بعد؟
- بلى..
- هيّا إذن! اخرج من مكانك، وشاركني وجبة

الفطور يا رفيق.

- لا أستطيع..
- وما بالك لا تستطيع!
- انظر خلفك!

اتجهت ببصري صوب شرفة الغرفة، فرأيت سروالاً فوق حبل الغسيل.

- ذلك سروالك يا سمعو فوق حبل الغسيل؟
- هو كذلك سروالي الوحيد. اضطررت لتنظيفه وأنا هنا بانتظاره حتى يجفّ.
- قمْ سأعطيك واحداً!
- شكراً.. لكن مقاسك ليس كمقاسي.

وكذلك فقد كان مقاسه أكبر من مقاسي.

وبقلب واجف غادرت الغرفة ذاك الصباح، وعلى المائدة تركت لسمعو إبريق الشّاي، مع قليل من الزّيت في الصحن.

وفي يوم آخر دلفت الغرفة على حين غرّة، فوجدته يمزّق أطراف قميصه، فبادرته مستغرباً:

- ماذا تفعل؟

فأجابني، وقد فاجأه حضوري المباغت:

- أنا! لاشيء! أحاول.. أحاول فقط صنع جوارب.
- ماذا قلت أخي سمعو! تصنع جوارب! أرجوك توقف.
- ...

وبأسف شديد أضفتُ:

- صحيح أنّنا فقراء من الطّراز الرّفيع، غير أنّ ما أنت عليه من حال يرعبني يا رجل!

فقصدت بعد ذلك خزانتي، وأعطيته منها زوج جوارب، ثمّ عانقه صامتاً.

وفور مجيء أصدقائي قصصت عليهم ما رأيت، فأشفقنا من حاله، وعقدنا العزم جميعاً على مساعدته أكثر من ذي قبل.

في اللّيل، وأثناء تناولنا وجبة العشاء، سألناه إذا ما كان يستفيد من المنحة الجامعية، وكان جوابه أنّه يستفيد. فعرضنا عليه أن يرافقنا غداً لاستخلاصها، والذّهاب لشراء بعض الملابس والحاجيات، فاعتذر قائلاً أنّه سيتدبّر الأمر بنفسه.

وكذلك فعل، فقد اشترى بذلة خاصة برياضة الملاكمة، وقفّازين!

وكلّ ما قاله عن الموضوع، هو أنّه يعشق الرّياضة، وقد حان وقت العودة لممارستها!

***

ومع مرور الوقت أنشأت الشكوك تحوم حول شخصيته الغامضة، وحول برنامجه اليوميّ الذي كان يقضيه خارج الغرفة، ودون أن نراه في أرجاء الحرم الجامعيّ! كما استمرّت تصرّفاته الغريبة، وتضاعف منسوب صمته المريب أكثر من ذي قبل!

وفي إحدى الأمسيات، عدت باكراً من السّاحة الجامعية، فدلفتُ إلى الغرفة لأنّ الدّور كان عليّ لتنظيفها.

وقبل أن أسكب الماء وأشرع في مهمّتي، كان لزاماً عليّ جمع أغراض سمعو، ووضعها فوق الكرسيّ أو السرير حتّى لا تتبلّل، فبدأت بتنحيتها رويدا رويدا...

فجأةً انسلّ ملف أخضر كان مدسوسا بين طيّات البطانية، وتبعثرت أوراقه أرضاً، فأخذت في جمعها وإرجاعها إليه.

وكم صُعقت لما وقع بصري على شهادة الباكالوريا التي كانت من ضمن محتوياته، وهذا معناه أن صديقنا سمعو غير مسجّل في الكلية، أو بالأحرى لم يعد كذلك!

تابعت جمع الأوراق، حتى إذا شارفت على الانتهاء لمحت جواز سفر باسمه، وأوراق مكتوبة باللغة الانجليزية، تفيد بأن سمعو قد وقع عليه الاختيار في القرعة السّنوية التي تنظّمها الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي فقد حصل على الإقامة في بلاد العم سام.

وبقلب تتنازعه ضروب مختلفة من المشاعر، تراوحت بين الفرح من أجله والحزن لما اقترفه في حقّنا، دسست الملف في خزانتي، فأحكمت إغلاقها، وخرجت في إثرِ أصدقائي.

وأخيراً حصلنا على تفسير لبعض تصرفاته الغريبة، كحوزته لكتاب واحد خاص بتعلم اللّغة الانجليزية، وغيابه المتكرر، بسبب انشغاله بتجهيز الوثائق الضّرورية... !

وما أطلعت زملائي بأمر سمعو حتّى ساد جوّ من الذّهول والحيرة بيننا، فلم نكن نستحق أن يكتم الأمر عنّا، وقد حاول شرح دوافعه، ولكن ليته ما فعل ذلك.

وفي الصباح غادر للأبد دون تكليف نفسه عناء توديعنا!

قَرْطيطْ مرّ من هنا!

1

استفاقت الأسرة الصّغيرة، المكونة من **ثُرَيّا** ووالدتها **زْهُورْ** وشقيقها الصّغير عبدو، ذات صباح على وقع زيارة مفاجئة لبعض نساء القرية، وهنّ في أبهى حلّة!

سارعت ثُرَيّا الخطى، فاستقبلتهنّ أحسن استقبال، وأجلستهنّ في بهو البيت، بينما انهمكت أمّها **زْهُورْ** في إعداد وجبة فطور تليق بالضّيوف، وكلّها همّة ونشاط.

تبادلت النّسوة أطراف الحديث وأخبار القرية، فترحيب من هذا الجانب، وإطراء من الجانب الآخر، إلى أن انبرت للحديث **خالتي رقية**.

وكانت خالتي رقية-كما يحلو للجميع المناداة عليها- قد تجاوزت

الخمسين بقليل، تطبعها وسامة جار عليها الزّمن.

وبالإضافة إلى إجادتها لكلّ ما يتعلّق بشؤون النّساء، من حمل وتوليد، فهي كذلك كانت سفيرة القرية للنّوايا الحسنة عند نشوب أيّ شجار، أو خطبة، أو زواج...

صاحت خالتي رقيّة بصوت عذب خفيض:

- لالّة زْهُورْ! نحن أهل وجيران، وعلى هذا الأساس جئنا نطلب يدك، على سنة الله ورسوله، **للسيّد قرْطيطْ**.

صحيح أنّك أمّ لعبدو وثُرَيّا، حفظهما الله تعالى ورعاهما، وحقّ أيضاً أنّك فقدت زوجك رحمة الله عليه، لكن للضّرورة أحكامها الخاصّة، كما لا يخفى عليكِ، والحياة تحتاج لرفيق نتقاسم معه صعابها.

صمتت خالتي رقيّة بُرهةً، ثمّ أضافت مستدركة:

- والسّي قرْطيطْ يتعهّد برعاية عبدو وثُريّا، والاهتمام بهما كأنّهما من صلبه ودمه.

دار دولاب الزّمن سريعاً بِزْهُورْ، ولم تعِ جيّداً ما سمعت إلاّ بعد مرور بضع لحظاتٍ، فجاء ردّها قاسياً عنيفاً:

- في الحقيقة، لقد ظننتُ أنكّنّ هنا من أجل الاتّفاق على موعد عقد قران ابنتي ثُرَيّا، وأنّ والدة خطيبها هي من أرسلتكنّ، لكن يبدو أنّني أسأت التّقدير!

فردّت خالتي رقيّة، وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة:

- بل جئنا من أجلك يا عروس.

- أتأسّف لقول ما سأقوله خالتي رقية، فمجيئك عندي غالٍ جدّاً، غير أنّني حقاً لا أستطيع وضع حمار مكان حصان عربيّ أصيل.

2

فأمّا الخبر فقد انتشر في جنبات القرية كالنّار في الهشيم، وأما قَرْطيطْ فصار مادة صائغة وحديثاً على كل لسان، فمنهم من أكّد بأنّ حصانا عربياً أصيلا ميّتاً أفضل بكثير من حمار حيّ، ومنهم من قال بأن قَرْطيطْ قد اعتزل في بيته ولم يرَ نور الشّمس طيلة أسبوعين كاملين، ومنهم من نعته بالحشريّ الحسود الذي نقم على المرحوم في حياته، وتجرأ عليه بعد مماته، ومنهم من وقف وقفة احترام لزهور التي لقّنته درساً قاسياً، وغير هذا كثير...

لم يمر الأمر برداً وسلاماً على عبدو هو الآخر، فقد تجاسر عليه أحد أصدقائه، وحاول التنمّر عليه ونعته بابن قَرْطيطْ، لكنّه سرعان ما انبرى له، فطرحه أرضاً وشدّ شعره بعنف حتّى توسّل إليه، ووعده بعدم تكرار قوله.

ولما لمحت زْهُورْ الانزعاج في عيون ثُرَيّا وعبدو، طيّبت خاطرهما

بكلماتها العذبة الشفافة، مؤكّدة أنّها كرّست حياتها لهما منذ ولادتهما وبوجود والدهما، أما الآن وقد غاب وجهه العزيز فقد ازدادت تعلّقاً بهما، وزاد استعدادها للتّضحية حتّى الرّمق الأخير من أجلهما.

3

أشبكَتْ **زْهُورْ** يديها وراء ظهرها، وأنشأت تصرخ، وهي توزّع نظراتها بين ابنتها الغارقة في فستان زفافها ودموعها، وبين لهيب النّيران المستعرة التي كانت تلتهم ما تبقّى من منزلها الطّيني:

- لقد فَعَلَها!

فعلها!

فعلها!

فيضان النهر:

أتذكّر تلك اللّيلة وكأنها البارحة، فبعد ليلتين متتاليتين من الهطول بغزارة شديدة، توقّفت الأمطار أخيراً، فبزغ القمر بدراً منيراً.

توجّست أمّي وساورها شكٌّ يميل إلى اليقين بأن فيضان النهر وشيك، وأن وقت توضيب الأغراض قد حان. خطر استشعره باقي الجيران، فدبّت الحركة في الحيّ، تراقصت معها أنوار المصابيح اليدويّة (في ظلّ انعدام شبكة الرّبط الكهربائيّ).

انهمك الجميع في جمع الأغراض، ووضعها في مكان بعيد، حتى لا تتعرّض للتّلف بسبب اجتياح مياه النّهر العاتية. في حين عكِف «العمّ جلّول» على تحليل الأصوات القادمة من النّهر، باعتبارها معطيات يبني عليها تقديراته التي يحترمها الجميع، نظراً لخبرته بالنّهر، والذي لم يعرف في حياته خليلاً أكثر منه.

وبعد دقائق أنشأ يردّد بارتياع:

- إنه قادم! إنه قادم! النّهر قادم!

وكذلك كان الأمر...

جاء الولد المطيع صيفاً، والعاقّ شتاءً، فغمر أغلب المنازل، بل جميعها، وأتلف المحاصيل الزّراعية، وجرف بكلّ قوّته أشجار الزّيتون، والتّين، وبعض الخراف الهزيلة...

وفي سورة الهلع ارتقى الجميع فوق سطوح البيوت، فجعلوا يردّدون عبارات الصّلاة والسّلام على رسول الله، طالبين النجدة من الخالق تعالى.

حملقتُ بعينيّ إلى السّماء، والفرحة تملأ قلبي الصّغير والأمل يحدوني لتطور الأحداث أكثر فأكثر، فهشّ قلبي لرؤية القمر، وهو يصرّ على معاينة ما يجري.

وكم سرني ما كان يحدث حينها! فالحق أنّني كنت قد سمعت العديد من القصص حول فيضان النهر، بيد أنّني لم أكن شاهداً على أيّ منها.

فمن الناس من روى أن أحدهم احتمى ذات ليلة بشجرة وقضى اللّيلة فوق أغصانها، ومنهم من حكى أن شاباً أنقذته أميرة الجنّ من الغرق وتزوّجته بعدها، حتّى جاءت تلك الليلة، فاكتشفت فيها الوجه الآخر لما كان بالنّسبة لنا نحن الأطفال مجرد مسبح صيفيّ صغير!

أثار انتباهي سماع أمي تجهش بالبكاء، وتتضرّع إلى ربّها بأن يوقف هذا

المارد كما أوقف الأمطار عن الهطول.

لحظتها تحوّل عشقي، وإعجابي بما يفعله النّهر إلى كره شديد، وذلك لما سبّبه لأمّي المسكينة من خوف وفزع، خاصّة بغياب أبي المتواصل بحثاً عن اللقمة.

فكّرت حينها أن أضرب النّهر، أن أشتمه، أن أجافيه، ولا أسبح فيه بعد الذي اقترفه في حق أمّي. وشعرت بمرارة كبيرة بسبب ضعفي، وعجزي عن فعل أيّ شيء أمام الذي يحصل.

لأول مرّة في حياتي اعتراني شعور مزدوج، تراوح بين الإعجاب والكره، الإعجاب بقوة النّهر، وكرهه لذات العلة والسب!

وكجروٍ صغير التصقت بأمّي، وقد ملك الخوف كياني، فلا خوف مادامت أمي صامدة واقفة، وكلّ الخوف والرّعب بعد نزول أوّل دمعة من عينيها الودودتين، حقيقة مقدّسة عندي حتّى يومنا هذا:

إلا بكاء أمّي، فلا طاقة لي على مقاومته.

وفي حالة كتلك التي كنّا عليها، فقد انتظرنا المساعدة والإغاثة، وما هي إلا لحظات حتّى بدأت محاولات الاتصال بالأقرباء، علّهم يجدون إلينا سبيلا، بيد أنّ غضب النّهر كان أكبر وأعظم، ومن هدير أمواجه واصطخابها سمعناه يزمجر بصوت حاد:

- أنا الأقوى هنا.. أنا الأصل، وأنتم أخذتم عني نومي لسنين طوال، فشيّدتم بيوتكم على ضفافي، وأطربكم نقيق ضفادعي، وأعجبتكم كثرة أعشابي، فوجدتم في النّقيق مؤنسا لكم في سهراتكم، وفي أعشابي بلسما وعلاجاً لأمراضكم.
أنا الأقوى هنا.. أنا الأصل...

تناولت أمي غطاء فغطّت به جسمي الهزيل، ووضعتني على الأريكة، فطلبت منّي بنبرة رجاء أن أخلد إلى النّوم إن أنا أردت بها وبنفسي خيراً.

وما أن استلقيت هناك حتّى أحسست ببعض الدفء، وسبحت في دوّامة من الأفكار، وقد أعملت كلّ خيالي لتصوّر ما آلت إليه الأوضاع، وقلبي يعتصر كمداً وغماً على الأشياء الصّغيرة الكبيرة.

فكّرت في أصدقائي جميعاً، وفي ملعبنا الذي اعتنينا به مؤخراً، حيث رسمنا معالمه بمسحوق الجير، كما نراها على شاشة التلفزيون.

فكّرت في الفرن الطينيّ الذي صنعته أختي الصغيرة، وفي عرائسها.

فكّرت في دجاجاتنا، كيف لا وهنّ كلّ ثروتنا.

فكّرت في والدي، وفي غيابه القاهر المتكرّر عنّا، وراودني إحساس بأنّه مستيقظ يستشعر الخطر المحذق بنا، ولا سبيل له في معرفة تفاصيل ما يجري، أو فعل أيّ شيء لأسرته البعيدة الوحيدة.

لتكون صورة أبي هي آخر ما داعب ذهني، قبل أن أستسلم نهائياً للنوم.

في الصّباح، استيقظ الحيّ على وقع تراجع مستوى النّهر، وما خلّف وراءه من أتربة، وأشواك، ودجاج نافق...

منظر دفع حشوداً بشريّة من الطفيليين للقدوم، والاستفسار حول ما حدث، غير أنّنا قابلنا تلك الحشرية بالصّمت كإجابة جماعية منّا.

وبدون اتّفاق مسبق، كتمنا جميعاً تفاصيل ما جرى في تلك اللّيلة، ووضعنا سرّها في خزانة الذّكريات.

أمّا القمر فظلّ هو الشّاهد الوحيد على ما حدث، ونحن بدورنا قدّرنا ما فعله من أجلنا، بطرده السّحب المحمّلة بالأمطار، وإلاّ لكانت الأمواج العاتية قد جرفتنا جميعاً.

إلى مُهْلِكَتي:

كلّما توغّلت السيّارة في دروبها بين سفوح ومنعرجات جبال الرّيف الشامخة، حيث الطّبيعة الخلاّبة والهواء النقيّ، إلّا واستشعر يونس راحةً من نوع خاص، وهو من كان يحتاج إلى تغيير الأمكنة التي أصبحت تغذّي جرحه مؤخراً.

جلس إلى جوار النافذة، فطفق يستقبل معالم المكان الجديد، بنهمِ المتطلّع إلى اكتشاف المزيد من الأسرار. ولأوّل مرّة رأى حقولاً ممتدّة من القنّب الهندي، فالمكان الذي تمّ تعيينه للتّدريس فيه، معروف على الصّعيد العالمي بزراعة وإنتاج هذه المادة.

- هل اقتربنا قليلاً؟ سأل يونس السائق.

فردّ السائق، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ودودة:

- أجل.. بقي القليل فقط يا أستاذ.

عاد يونس إلى أفكاره وعالمه الدّاخلي، وقد غمرته سعادة على غير

المتوقع، فالأَوْلى أن يرافق تعييناً في مكان مقفر كهذا قلق ودهشة، وخوف من المجهول، بيد أنّه كان يقبل على التّجربة الجديدة كمن يواجه حكم الإعدام بإقدام وشجاعة!

وما أن أوصله السّائق إلى المدرسة، حتّى ألفى المدير بانتظاره، فاستقبله ببرودة، وأطلعه بموعد الاجتماع المخصّص لتدارس مستجدات الدّخول المدرسيّ، ثم تمنّى له الحظّ الطّيّب، وأغلق في وجهه باب حجرته الوحيدة، حيث كان يقطن، ويمارس مهّامه وواجباته كمدير أيضاً!

أقعى يونس، وبجانبه أغراضه التي استطاع إحضارها، فأشعل سيجارةً، وجعل يعبّ منها أنفاساً متلاحقةً.

وفي سورة النّشوة الكبرى بالتّيه، التمعت في ذهنه فكرة أحد أصدقائه، والذي كان قد نصحه بالتّوجّه إلى المسجد في حال ما ساءت الأمور معه.

ودون تردّدٍ قصد مكاناً مرتفعاً، مكّنه من رصد مئذنة المسجد.

وفي طريقه، أخذ يستمتع بمنظر المياه المتدفّقة من الشّلاّلات، وقد تزيّنت بصفائها الأنهار، واحتضنت عذوبتها الجداول والبحيرات. وكم استكانت مهجته للخضرة التي تطبع المكان، فانشرح صدره، وامتلأت نفسه أملاً، فأيقن بأنه أخيراً حصل على المكان الذي سيخلّصه من ذكرى ووجع حبيبته التي تزوّجت مؤخراً، مفضّلة الهجرة مع زوجها إلى

فرنسا، وعدم ترك مصيرها معلقاً بتعيين في آخر الدنيا!

ولما بلغ المسجد وقع بصره على حزم من القنّب الهندي، كانت قد وُضعت على طول سور المسجد، وبمحاذاة بابه! وفي وقت لاحق علم أنّها من نصيب الفقيه، وأنّها جزء من أجره السنوي!

انتظر يونس حتّى موعد صلاة العصر، فصلّى مع من أتوا، وأخبرهم بهويته، ولما هو محتاج، فعرض عليه الفقيه الإقامة في غرفة ملاصقة لغرفته بشكل مؤقّت، وأطلعه بأنّها مخصّصة لجلسات أهل القرية الليليّة، وإن هم صبروا ليلة فلن يصبروا أكثر.

في الصّباح سمع يونس طرقا خفيفاً على الباب، فانتصب واقفاً، وجعل يعدّل ملابس نومه، قبل أن يستقبل الزائر. فأمّا الطّارق فكان رجلاً قد جاء باكراً يعرض على الأستاذ الجديد كراء شقة صغيرة، مهابة أن يسبقه شخص ما إلى غنيمته. وأمّا يونس فقبل عرضه عن طيب خاطر، مُقدّراً موقفه جيّداً وخياراته المعدمة.

***

- هل أنت هو معلّمنا الجديد؟ صاحت تلميذة من بين الجالسين والجالسات على المقاعد الخشبية.

فردّ يونس، وقد افترّ ثغره عن ابتسامة رائقةٍ:

- نعم.
- تبدو صغيراً جداً!

قالت الطفلة بنبرة بريئة، فانطلقت ضحكات الصغار تعلن تأييدهم لرأي زميلتهم.

- ما اسمكِ يا صغيرتي؟ هتف يونس بهدوء، وهو يحيط بنظراته الطّفلة.
- اسمي ن...

وما تناهى إلى سمعه اسمها حتى اتّسعت حدقتا عينيه من شدة الدّهشة، فقد كان مطابقاً لاسم حبيبته!

لحظتها أدرك بأنّ الأقدار مصرّة على تعذيبه، والتلذّذ برؤيته يعتصر حزناً وكمداً، غير أنّه ابتسم، فخطا صوب الصّغيرة وربت على كتفها، ثم شرع يوزّع الهدايا على الجميع ترحيباً بهم.

ومع تصرّم الأيّام عُرف بأسلوبه الخاص في العمل، فأثناء فترة الاستراحة كان يتجنّب تجمّعات زملائه، مُكتفياً بإلقاء التّحية، وكان يتوارى عن الأنظار كلمّا استبدّت به الحاجة لتدخين السّجائر.

وكم كان شديد الحرص على عدم مشاهدة متعلّميه له وهو يدخّن!

سلوكه هذا، وابتعاده عن مخالطة أصدقائه أزعجهم، غير أنّه في الوقت

عينه كان يحظى بتقديرهم، وذلك راجع لتفانيه في العمل، والتزامه بالوقت بشكل دقيق، فلا الثّلوج حالت مرّة بينه وبين أداء واجبه، ولا السّيول الجارفة، ولا الأمطار والعواصف...

طريقةٌ نهجها طيلة سنوات عمله هناك، إذ لم يجد يوماً أي داعٍ لإقحام الآخرين في عالمه الخاص، وإفساد عزلته عليه. وقد أجاد كذلك الطّبخ بشكل احترافي، وما انفكّ يوفّر لنفسه دائماً الأدوات اللاّزمة، من ثلاّجة وفرن وغيرهما...

***

وكان فصل الشّتاء، أحبّ الفصول إلى قلبه، بثلوجه، وبمنظرها الذي يسلب الألباب.

أمّا اللّيل فكان أقرب الأوقات إلى نفسه، ولطالما استسلم لسلطانه، وأخذ بين يديه رواية، ووضع أمامه قدحه المملوء خمراً، وتاه في عوالمهما، إلى أن يستحضر ذهنه صورة حبيبته، فيهيم على وجهه كَرَّة في تخيّل حياتها الجديدة، وهي سعيدة بزواجها، وعيشها الرّغيد في باريس أو إحدى المدن الفرنسيّة الأخرى، وكرّة أخرى كان يتذكّر ضحكتها، وابتسامتها، ووعودها له بأنّها وهبت نفسها له، وأنّها ستبقى على العهد إلى آخر المشوار، فيشتعل في دواخله لهيب التّوق إلى وجهها المشرق!

وكم مرّة تمنّاها بقربه حارّة كنيران موقده، شبقة كعادتها في حضنه!

ومن العادات التي لازمته أيضاً، أنّه كان كلّما وجد باعثاً إلاّ وأخرج أدوات رسمه، وأخذ ينفّس عن مكامنه ولواعجه. جلسات كانت تدوم لساعات طوال، يرافقه فيها صوت فيروز الشجيّ، وقدحه.

لقد دأب على عزلته لسنوات طوال، غامضاً بالنّسبة للجميع، وشفّافاً أمام سيجارته وكأسه ولوحاته التي لم يرها أحد قط، إلى أن حدث ولفت الانتباه إليه بتغيبّه لمدّة يومين عن العمل، لأول مرّة في مشواره المهني!

وقتذاك قرّر مدير المدرسة، بمساعدة بعض الأساتذة، اقتحام شقّته والاطمئنان على حاله.

وما كسروا باب الشقة، ودلفوا إليها، حتى وجدوه ممدّداً على الأرض، وبقربه قنّينة خمر فارغة، وقدح مقلوب، وأعقاب سجائر، ولوحات مرسومة بقلم الرّصاص لامرأة واحدة في أوضاع مختلفة!

وفوق الطّاولة عثروا على لفافةٍ كتب عليها بخطٍ أنيق:

إلى مهلكتي أقول:

ليس مرض الالتهاب الكبدي من قتلني، بل أنتِ، فروحي ماتت يومها، وبقيتُ بشغفٍ أنتظرُ فناءَ الجسد.

...ستتنامى خسارتي دون أدنى ريبٍ عدّة أضعافٍ.

اقتربي يا حلمَ قلبي المثخن!

اقتربي يا ذنبي الذي لم ولن يغتفر!

اقتربي يا فخرَ أوجاعي، وأسطورة آهاتي..

اقتربي!

لقد عشتُ مكويّا بلظى نار البعدِ عنك، وسأغادر الحياة مهيضَ الجناح، حسيرَ الرّأس، كسيرَ الفؤاد.

(طأطأتْ رأسها، فأجهشَ بالبكاء. نزلتْ دمعة فدمعتان، واشتعلَ اللّهيب في القلبين الباردين.)

شرف الدين عكري

ISBN 978-1-861-64263-9

9 781861 642639

2025